مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (6) العدد (6) 2022
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (6) No. (6) 2022

منهجية التأليف في كتب التراجم الشعرية خلال القرن الثالث الهجري

د.منال محمود ناصر*

(تاريخ الإيداع 8/14 /2022. قُبِل للنشر في 10/30 /2022)

□ ملخّص □

يحاولُ البحثُ الوقوفَ على منهجيّة التأليف في كتب التراجم الشعرية خلال القرن الثالث الهجري، مبيّناً أهمية هذه الكتب في التأسيس لهذا الضرب من التأليف، ودورَها في رفد الكتب اللاحقة بالمادة العلمية والأخبار والأشعار، واشتمالَها على إلماحات نقدية تعكس طبيعة الفكر النقدي في تلك المرحلة.

وقد اختار البحث نموذجين للدراسة، هما: كتاب (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام الجمحي المتوفّى سنة 232 هـ، وكتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة الدينوري المتوفّى سنة 276 هـ، وهما من أهمّ الآثار الباقية التي اعتنت بتراجم الشعراء خلال القرن الثالث الهجري، إذ يُقارن البحث بينهما على مستوى المنهج، ويُبيّن أهميتهما، والمآخذ التي سُجّلت عليهما.

وتُعدّ كتب التراجم الشعرية التي أُلّفت خلال القرن الثالث الهجري من أوائل الكتب العربية القديمة التي نزعت إلى التقسيم والتبويب، وهي تكتسب أهميتها المنهجية انطلاقاً من عنايتها بالإسناد، وعرضِها الأخبارَ بطريقةٍ علميةٍ لا تخلو من نظراتٍ نقديةٍ مهمّة، وتناولِها مختلفَ الجوانبِ الاجتماعية، والسياسية، والدينية، والأدبية التي تحيط بالشعراء، فكانت هذه الكتب مصدراً أصيلاً من مصادر التراث العربي، ومرجعاً مهمّاً لكثير من النصوص الشعرية، وآراءِ القدماء في الشعر والشعراء.

الكلمات المفتاحية: منهجية التأليف، التراجم الشعرية، القرن الثالث الهجري.

* مدرّس – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة طرطوس – طرطوس – سورية

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (6) العدد (6) 2022
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (6) No. (6) 2022

Compilation Methodology in the Bibliographies of Poets During The third Century AH

Manal Mahmoud Naser*

(Received 14/8 /2022. Accepted 30/10/2022)

□ ABSTRACT□

This research attempts to study the compilation methodology in the bibliographies of poets during the third century AH. It shows the importance of these books in laying a foundation for this kind of authorship and their role in providing subsequent books with scientific materials, news and poetry. Moreover, they include critical hints which reflect the nature of the critical ideology during that time.

The research has chosen two works for the study. namely (Tbakat Fohoul Ashoaraa) by Ibn Salam Algmhy. and (Ashear Wshoaraa) by Ibn Qutaiba Aldinory. These works few of the most significant remaining traces which dealt with poets bibliographies in the third century AH. The research compares the two books in terms at their methodology, and highlights their importance and relevant criticisms.

This type of books is seen as one of the first of its kind to use sections and chapters. Moreover, methodologically speaking, such books are important because of including references and presenting facts with a critical approach. In addition, these books deal with the different conditions of poets: social, political, religious, and literary. Therefore, these books are seen as an original source of Arabic heritage and an important reference for many poetic scripts and ancient views on poets and poetry.

Key words: compilation methodology; bibliographies; third century AH.

* Professor , Department of Arabic , Faculty of Arts and Humanities , Tartous University , Tartous , Syria .

مقدمة

ازدهرت الحياة الأدبية خلال القرن الثالث الهجري في الدولة العباسية بعد استقرار النظام السياسي فيها، وقد أدّى ذلك إلى تطور حركة التأليف والترجمة، وبروز عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء الذين وسموا هذا القرن بميسم الإبداع الفكري والثقافي المتنوع، كالجاحظ والمبرّد وابن قتيبة وأبي تمام والبحتري وسواهم، فوُضعت التراجم الدقيقة للفلسفة اليونانية التي أثّرت في طبيعة التفكير والتأليف عند العرب، وانتظمت علوم النحو واللغة والأدب في كتب متخصصة تناقش جوانبها كافة، وتبدّت ملامح حركة التجديد الشعري التي أرهص لها عدد من الشعراء في أواخر القرن الثاني الهجري، وشكّلت نقلة نوعية في سيرورة الشعر العربي القديم، وقد واكب ذلك ظهور الكتب الشعرية التي حفظت لنا تراث العرب في هذا الميدان[1].

ففي أوائل القرن الثالث الهجري، بدأ كثير من الأدباء المسلمين يؤلفون كتباً عن الشعراء وحياتهم ومؤلفاتهم، ويمكننا تقسيم هذه المؤلفات إلى نوعين: يحتوي النوع الأول على مختارات شعرية ككتاب (الأصمعيات) للأصمعي (المتوفى سنة 216 هـ). أما الثاني فيضيف إلى المختارات بعض المعلومات عن حياة قائليها، ككتب طبقات الشعراء وأخبارهم التي انتشرت بشكل كبير خلال هذا القرن، ويَذكر ابن النديم في كتابه (الفهرست) أسماء كثير من الكتب التي أُلّفت في هذا المجال[2]، ومن أشهر هذه الكتب التي سلمت من الضياع: (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام الجمحي، و(الشعر والشعراء) لابن قتيبة الدينوري.

ويكتسب البحث أهميته انطلاقاً من مقاربته لمنهجية التأليف في هذين الكتابين، فنقف خلال الدراسة على بواكير حركة التأليف في فن التراجم الشعرية، وتتبدى أهمية كتب التراجم الشعرية في ميدان النقد، وفي ميدان التاريخ الأدبي بالذات، إذ لولا كتب التراجم لضاع كثير من النصوص الأدبية التي تضمّنتها، ولضاع ذكر كثير من الشعراء والأدباء المغمورين أو متوسطي الشهرة . ويرى بعض النقاد أن فهم النص الأدبي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمعرفة صاحبه، فالنص الأدبي هو مرآة عاكسة لمؤلفه وتاريخ حياته، والمؤلِّف بدوره مرآة عاكسة لعصره الذي عاش فيه، ومعبّر صادق عن روح ذلك العصر، ولذا يتوجب علينا في ضوء هذه المقولة أن نعرف أكبر قدر ممكن من المعلومات عن المؤلِّف وتاريخ حياته، وأن ندرك المؤثرات الثقافية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية التي أحاطت بحياته، وكوّنت فكره ووجدانه، ثم نلمّ أيضاً بالتجارب الشخصية، وعلى من تتلمذ، وبمن اتصل، وأين عاش وتنقل، وهذا ما توفّره لنا كتب التراجم المختلفة[3]. وبذلك، يكون هدف البحث استجلاء الملامح المنهجية للتأليف في التراجم الشعرية خلال القرن الثالث الهجري، واستكشاف طبيعة الفكر النقدي والثقافي من خلال دراسة كتابي ابن سلام وابن قتيبة بوصفهما أنموذجين اتّفق العلماء على أهميتهما، فيقارن البحث بينها، ويبيّن دورهما في رفد كتب التراجم اللاحقة بالمادة العلمية والأخبار.

---

[1] للتوسع، انظر : طه حسين، **من حديث الشعر والنثر**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2013 م، ص 82 – 84.

[2] أحصى الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي أسماء نحو45 كتاباً في مجال تراجم الشعراء وطبقاتهم من كتاب الفهرست لابن النديم وسواه، جلّها مفقود، انظر: د.محمد عبد المنعم خفاجي، **ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان**، دار الجيل، بيروت، 1991 م، ص 524 – 527.

[3] انظر : د.أحمد شوقي، **من المصادر الأدبية واللغوية**، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، 1990 م، ص 200.

وسيعتمد البحث على المنهج التاريخي في مقاربته التحليلية لمضمون هذين الكتابين، ويتيح هذا المنهج إمكانية قراءة الكتب، وبواعث تأليفها، ومنهجيتها، قراءة نقدية تربط بين هذه الكتب وزمان تأليفها، مما يساعد على اكتناه أصالتها وقيمتها المعرفية من دون عزلها عن محيطها الزماني والمكاني.

طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي (150 – 232 هـ)

ابن سلام الجمحي – حياته وصفاته العلمية

ابن سلام الجمحي[1]، أبو عبد الله محمد بن سلاّم بن عبيد الله بن سالم الجمحي البصري، من علماء أهل البصرة، وهو أحد الإخباريين والرواة، ومن أعيان أهل الأدب، صنّفه الزبيدي في الطبقة الخامسة من اللغويين البصريين[2]، ووصفه القفطي بالصدوق[3]، وقال عنه الذهبي: "كان عالماً أخبارياً أديباً بارعاً"[4]، له من الكتب : بيوتات العرب وغريب القرآن وغيرهما، أخذ عن حماد بن سلمة ومبارك بن فضالة وجماعة، وروى عنه الإمام أحمد بن حنبل وابنه عبد الله وأبو العباس ثعلب وأحمد بن علي الأبار. ويعد الكتاب الذي نحن بصدده (طبقات الشعراء أو طبقات فحول الشعراء)[5] من أهم كتب النقد والتراجم وأقدمها، وسيتناول البحث مادة الكتاب ومنهجه وأهميته والمآخذ التي سُجّلت عليه، مع التركيز على عنصر التراجم فيه.

مادة الكتاب ومنهجه في التراجم

يبدأ ابن سلام كتابه بمقدمة مهمة توضّح منهجه في الكتاب، ويعرض فيها مجموعة من الآراء النقدية في الشعر. وما يهمّنا من المقدمة هو اختيار ابن سلام لتراجمه من الشعراء، إذ يستهل ابن سلام مقدمته بالقول: "ذكرنا العربَ وأشعارَها، والمشهورين المعروفين من شعرائها، وفرسانها، وأشرافها. وأيامها، إذ كان لا يُحاط بشعر قبيلةٍ واحدةٍ من قبائل العرب، وكذلك فرسانها وساداتها وأيامها، فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهله عالم، ولا يستغني عن علمه

---

(1) انظر ترجمته في : – ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الورّاق البغدادي، **الفهرست**، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 2، 1997 م، ص 143.

– الأنباري، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط 3، 1985 م، ص 125.

– ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، **معجم الأدباء**، تحقيق: د.إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1993 م، ج 6، ص 2540 – 2541.

– الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 2000 م، ج 3، ص 96.

– السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، ط 2 ، 1979 م، ج 1، ص 115.

(2) انظر: الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسي، **طبقات النحويين واللغويين**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، القاهرة، مصر، دار المعارف، 1973 م، ص 180.

(3) انظر : القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، الطبعة الأولى، بيروت، المكتبة العصرية، 1424 هـ، ج 3، ص 143.

(4) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثالثة، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1985 م، ج 10، ص 651.

(5) للتوسع في اسم الكتاب واختلاف آراء العلماء والمحققين فيه، انظر: د.منير سلطان، **ابن سلاّم الجمحي وطبقات الشعراء**، الطبعة الثانية، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1986 م، ص 150 – 156. وسيعتمد البحث طبعة دار المدني بجدة بتحقيق محمود محمد شاكر للكتاب بعنوان (طبقات فحول الشعراء) في شواهده.

ناظرٌ في أمر العرب"[1]. وبذلك يكون ابن سلام قد رسم حدّاً لتراجمه، وهو **الشهرة**، ثم يستطرد ابن سلام في مقدمته إلى بعض القضايا النقدية، كقضية الشعر المنحول، وقضية اللحن في اللغة، ليعود بعد ذلك إلى بيان عمله في تراجم الشعراء، فيقول: "ففصّلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام، والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام، فنزّلناهم منازلَهم، واحتجَجْنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجّة، وما قال فيه العلماء... فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعراً، فألّفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه، فوجدناهم عشر طبقات، أربعة رهط كل طبقة، متكافئين معتدلين"[2]. ثم يرجع ابن سلام إلى عادته في الاستطراد، فيعرض لقضية قدم الشعر العربي، ضارباً الأمثلة على ذلك، وقضية رواة الشعر، مختتماً مقدّمته بالتمهيد لشعراء الطبقة الأولى.

وقد تناول ابن سلاّم في طبقاته مجموعة من الشعراء عدّتهم 114 شاعراً ما بين جاهلي وإسلامي، موزعاً إياهم بين طبقات الشعراء الجاهليين، وطبقة أصحاب المراثي، وطبقة شعراء القرى العربية، وطبقة شعراء يهود، وطبقات الشعراء الإسلاميين.

وبالوقوف على طريقة ابن سلام في تراجم الشعراء الجاهليين، نلحظ التزامه بمنهج واحد في طريقة عرض الشعراء، وسيتخذ البحث من شعراء الطبقة الأولى نموذجاً على ذلك.

يبدأ ابن سلام بعرض أصحاب الطبقة الأربعة، وهو يُقدّم لنا شهرة الشاعر أولاً، ثم يردف الشهرة بالاسم الحقيقي متبوعاً بنسبه الممتد إلى قبيلة الشاعر، وبعد ذلك يأتي بالكنية، ففي ترجمته للنابغة الذبياني يقول : "نابغة بني ذبيان، واسمه زياد بن معاوية بن ضِباب بن جابر بن يربوع بن غَيْظ بن مرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان، ويكنى أبا أُمامة"[3]، وإذا لم يجد إلا اسم الشاعر مجرداً، ذكره كما هو، كما في ترجمة امرئ القيس وزهير[4]، وتتضح أهمية ذكر النسب الطويل للشاعر في قراءة ابن سلام لشعره، فمن هذه السلسلة "نعرف القحطاني من العدناني، والتيمي من القيسي من الربعي، ونجد تفسيراً لكثير من الإشارات التي ترد في شعر الشاعر، ولولا نسبه لما عرفنا لها سبباً. فابن سلام يضع جزءاً كبيراً من تاريخ حياة الشاعر أمامنا بذكر سلسلة نسبه"[5].

وبعد أن يترك ابن سلام نسب الشاعر، يقدّم لنا آراء العلماء والأمصار فيه، كما يورد الرأي الذي لا يوافق عليه، ومن ذلك قوله: "أخبرني يونس بن حبيب: أن علماء البصرة كانوا يُقدّمون امرأ القيس بن حجر، وأهل الكوفة كانوا يُقدّمون الأعشى، وأن أهل الحجاز كانوا يُقدّمون زهيراً والنابغة. وأخبرني يونس كالمتعجّب :أن ابن إسحاق كان يقول أشعر أهل الجاهلية مُرَقّش، وأشعر أهل الإسلام كُثَيّر. ولم يُقْبَلْ هذا القول، ولم يُشيّعْ "[6].

ويذكر ابن سلام ما وجد لكل شاعر من حجة، ليعرض لنا – من خلال ذلك – صفات شعره ومزاياه، ويتخلل ذلك استطراده لعرض بعض القضايا النقدية، كقضية السرقات الشعرية، وقضية عيوب الشعر الموسيقية، وفي آخر الطبقة يورد ابن سلام مختارات لما استحسنه الناس من التشبيه عند امرئ القيس، وهو لا يميل في ذلك إلى السرد المجرّد من الملاحظات الفنية، ولكنه يعقد المقارنات والموازنات بين أبيات امرئ القيس وسواه من الشعراء.

---

[1] ابن سلام الجمحي، ، **طبقات فحول الشعراء**، ص 3.

[2] نفسه، ص 23 – 24.

[3] نفسه، ص 51.

[4] انظر : نفسه، ص 51.

[5] د.منير سلطان، **ابن سلاّم الجمحي وطبقات الشعراء**، ص 217.

[6] ابن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، ص 52.

ولا يختلف منهج ابن سلام في بقية طبقات الشعراء الجاهليين عن منهجه في الطبقة الأولى، وعدّتها عشر طبقات، في كل طبقة أربعة شعراء، وكذلك في طبقة أصحاب المراثي التي لم يحظَ شعراؤها الأربعة بما حظيت به طبقات أخرى من وفرة الاستشهاد بشعرهم وأقوال العلماء فيهم، أما طبقة شعراء القرى العربية فقد خرج فيها ابن سلام عن نظامه الرباعي، فجعل فيها اثنين وعشرين شاعراً يتوزعون بين المدينة(5)، ومكة (9)، والطائف (5)، والبحرين (3). والخروج نفسه جاء في طبقة شعراء يهود، فذكر منهم ثمانية شعراء، ثم جاءت طبقات فحول الإسلام التي يعود فيها ابن سلام إلى نظام الطبقات العشر، وفي كل طبقة أربعة شعراء.

أهمية الكتاب

1- يعد كتاب طبقات فحول الشعراء من أوائل الكتب في هذا الفن، وقد أخذ المؤلفون بعد ذلك يصنفون في تراجم الرجال على حسب طبقاتهم وتصنيف علومهم. ويمتاز هذا الكتاب بمقدمته النقدية التي تعدّ من أقدم ما كُتب في النقد المنهجي عند العرب، إذ تضم المقدمة مجموعة من القضايا النقدية المهمة، وهي تشفّ عن فكر ثاقب، وحسٍّ نقدي أصيل، وخبرة ودراية ومعرفة عميقة بالشعر العربي ومصادره الأصلية الصحيحة، فكانت مقدمة ابن سلاّم تلك – بالإضافة إلى ما ورد في متن الكتاب من قضايا نقدية – إرهاصاً نقدياً في عالم الشعر والنقد آنذاك، وأصبحت المعايير النقدية التي ذكرها ابن سلاّم فيما بعد، قواعد يلتزم بها من ألّف بعده في نقد الشعر من معاصريه، أو العصور اللاحقة لعصره، كما أصبحت تراجمه الشعرية مصدراً لكتب التراجم اللاحقة أيضاً، فقد جمع ابن سلام الأخبار والأفكار التي كانت مبعثرة في عصره، وألّف بينها بطريقة علمية منهجية، وفي كتابه كثير من آراء الأدباء واللغويين التي انتفع بها اللاحقون، كأبي الفرج الأصفهاني في (الأغاني)، والمرزباني في (الموشح)، والآمدي في (الموازنة)[1].

2- تتميّز موضوعات الكتاب ومواده بالمنهجية العلمية، خاصة على مستوى التبويب، فكتاب ابن سلام كان أول كتاب أدبي يسير وفق نظام الطبقات، وكان ابن سلاّم مِن أقدم مَن قام بتبويب مادته العلمية وتوزيعها على أصناف وأقسام، "وما سبق كتاب ابن سلاّم من كتب لا مجال للتبويب فيها، إذ أنها كانت على العموم إما رسائل قصيرة لا مجال لتبويبها، وإما مجموعة من المرويات المدونة عن العلماء كانت تُملى إملاءً مما يجعل تبويبها أمراً عسيراً"[2]. ولا تقتصر المنهجية على التبويب وحسب، فقد اتبع ابن سلام منهجية علمية في عرض الأفكار، والبرهان عليها، واستنباط النتائج[3]، وهولا يكتفي بنظرة أو برأي، بل يلم بالفكرة من أطرافها، ويأخذها أخذ العلماء بالنظر والتحليل[4].

3- التزم ابن سلاّم في كتابه بذكر الروايات المحققة مع ذكر أسانيدها بشكل تام توثيقاً للنصوص التي استشهد بها، ولعل إيراده لقضية الشعر المنحول في أكثر من موضع في كتابه، ومناقشته لعثرات الرواة في تدوين الشعر، دليلٌ على الروح العلمية التي تميّز بها ابن سلام، إذ أراد إسناد كل قول إلى صاحبه، وكل شعر إلى عصره. ويشير الدكتور منير سلطان في دراسته للكتاب إلى "دقة ابن سلام في تقبّل الأخبار التي يرويها، فهو لا يتقبّل النص الأدبي على

---

[1] جَمَع المحقق محمود شاكر معظم أسانيد الكتب الأدبية التي استقاها المؤلفون من كتاب ابن سلام، انظر مقدمته للكتاب : ابن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، ص 35 وما بعدها.

[2] د.أحمد جاسم النجدي، **منهج البحث الأدبي عند العرب**، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والفنون، 1978 م، ص 128.

[3] انظر على سبيل المثال مناقشته لما أورده ابن إسحاق في السيرة النبوية من الأشعار لرجال لم يقولوا شعراً قط، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، ويستند ابن سلام في تفنيده لفساد هذه الروايات إلى أدلة قرآنية ولغوية وتاريخية: ابن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، ص 7 – 11.

[4] انظر على سبيل المثال احتجاجه لشعراء الطبقة الأولى من الجاهليين: نفسه، ص 55 – 65.

علاته، بل يمحصه ويناقش جوانبه التي يتهمها"[1]. كما يلحظ الدكتور محمد مندور انتباه ابن سلام إلى أهمية تحقيق صحة النصوص، وصحة نسبتها إلى صاحبها، ويضرب الدكتور مندور أمثلة تتعلق بانتحال الشعر، والشك في بعض الأنساب كنسب زهير إلى القيسيين، وتفسير الظواهر الأدبية كقلّة الشعر في مكة وكثرته في المدينة، ليخلص إلى أن الروح العلمية لابن سلام لا تقف عند ملاحظة تلك الظواهر، بل تمتد إلى تفسيرها، حتى لنراه يفصّل الأدلة العقلية والنقلية على انتحال الشعر[2].

4- استطاع ابن سلام – من خلال تراجمه – رسم صورة واضحة للمجتمع العربي في العصور التي تناولها، فهو يعنى بالجوانب الاجتماعية، والسياسية، والدينية، والأدبية التي كانت سائدة في تلك الأيام، ويعرضها في سياق الترجمة لحياة الشعراء. فعلى المستوى الاجتماعي يُعرّج ابن سلام في ترجمته للحطيئة على قصته المشهورة مع الزبرقان بن بدر، مشيراً إلى مشكلة الفقر من ناحية اجتماعية، والتكسب بالشعر لدى بعض شعراء ذلك العصر من ناحية أدبية[3]، وعلى المستوى السياسي يعرض ابن سلام لموقف السلطة الحاكمة من شعراء النقائض (جرير والفرزدق والأخطل) في ترجمته لشعراء الطبقة الأولى من الإسلاميين[4]، وتتداخل المستويات الاجتماعية والسياسية والدينية في رواية ابن سلام لمقتل مالك بن نويرة على يد خالد بن الوليد في أثناء حروب الردة، وقد وردت هذه الرواية في سياق ترجمة ابن سلام للشاعر متمم بن نويرة شقيق مالك، وهو من أصحاب المراثي[5]، وكذلك في قصة إسلام كعب بن زهير وقصيدته المشهورة (البردة) التي ألقاها في حضرة النبي (ص)[6]، والأمثلة على ذلك كثيرة.

المآخذ على منهجية الكتاب

تباينت آراء النقاد في مآخذهم على كتاب ابن سلام، واختلفت رؤاهم في المنهجية التي اتبعها على مستوى التقسيم الطبقي، وعلى مستوى المعايير المتبعة في ذلك التقسيم، ومن أهم الملاحظات النقدية :

1- على المستوى المعياري، يمكننا أن نسجّل على منهجية ابن سلام في تقسيم كتابه ملاحظة تتعلق بتعدد معايير التقسيم، فهو يعتمد المعيار الزمني في تقسيم كتابه إلى قسمين: أولهما يتناول فيه طبقات الشعراء الجاهليين، وثانيهما خصصه لطبقات الشعراء الإسلاميين، كما يعتمد المعيار القيمي في تسلسل هذه الطبقات. ثم يعتمد المعيار الفني أو الموضوعي في طبقة أصحاب المراثي، وفي جمع بعض الشعراء الذين تميّزهم سمة واحدة في طبقة خاصة، كطبقة الشعراء الذين تميّزوا بإجادة الرجز[7]، وطبقة الشعراء الذين تميّزوا بنزعتهم الشخصية إلى فن التشبيب[8]. ويعمد أيضاً إلى اعتماد المعيار المكاني في طبقة شعراء القرى العربية، والمعيار الديني في طبقة الشعراء اليهود، مما اضطره إلى مخالفة نظام التقسيم العشري / الرباعي الذي سار عليه في طبقاته الأخرى. ولئن رأى الدكتور محمود المراغي في

---

[1] د.منير سلطان، **ابن سلاّم الجمحي وطبقات الشعراء**، ص 248.

[2] انظر : د.محمد مندور، **النقد المنهجي عند العرب**، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر، 1996 م، ص 19 – 20.

[3] انظر : ابن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، ص 114 – 117.

[4] انظر : نفسه، ص 297 وما بعدها.

[5] انظر : نفسه، ص 204 – 209.

[6] انظر : نفسه، ص 99 – 103.

[7] الطبقة التاسعة من فحول الإسلام، وهم : الأغلب العجلي وأبو النجم العجلي والعجاج ورؤبة بن العجاج.

[8] الطبقة السادسة من فحول الإسلام، وهم : ابن قيس الرقيات والأحوص الأنصاري وجميل ونصيب.

ذلك اضطراباً[1]، فإن الدكتور منير سلطان يشيد باختلاف المعايير تبعاً لعوامل شتى، فالمعيار الزمني ينم على دقة فهم ابن سلام لتأثير عامل الزمن على الشعراء، فهذا العامل "ذو أثر فعال في حياة الشعراء، وعلى الناقد أن يلحظه ليتفهم ما ينتج عنه من آثار"[2]، والأمر نفسه ينطبق على تأثير العامل النفسي الذي لحظه ابن سلام في طبقة أصحاب المراثي، وتأثير البيئة المكانية الحضرية التي تختلف عن نظيرتها الصحراوية، وهو ما لحظه ابن سلام في طبقة شعراء القرى العربية[3].

2- على المستوى الزمني، يرى الدكتور مصطفى الشكعة أن كتاب ابن سلام يشوبه الاضطراب الزمني في تقسيمه للشعراء بين جاهليين وإسلاميين، وهو يعيب عليه تصنيفه الحطيئة وكعب بن زهير في الطبقة الثانية من الشعراء الجاهليين، فلقد شهد كلاهما الإسلام واعتنقه، والأمر ذاته ينطبق على شعراء الطبقة الثالثة: النابغة الجعدي وأبي ذؤيب الهذلي والشماخ بن ضرار ولبيد بن ربيعة، وغيرهم من الشعراء في بقية الطبقات، ويرى الدكتور الشكعة أن تسمية هؤلاء الشعراء بالمخضرمين هي الأصح[4]، والحق أنّ ابن سلام كان واعياً لتسمية المخضرمين، وقد ذكرها في مقدمته للكتاب[5]، ولكنه آثر دمج بعضهم في عداد الطبقات الجاهلية استناداً إلى تميّز شعرهم قبل الإسلام، وقد أشاد الدكتور منير سلطان بهذا الصنيع، إذ يقول: "فابن سلام محقٌّ حين يجعل المخضرمين في عداد الجاهليين، لأنهم إمّا لم يقولوا شيئاً في الإسلام، فتراثهم جاهلي في معظمه، وإما لضعف شعرهم في الإسلام"[6]، في حين يرى الدكتور رجاء عيد أن ابن سلام قد اتبع المنهج الفني – لا التاريخي – في إدراج الشعراء المخضرمين ضمن طبقاتهم، "أي أنه جعل طريقه تتبع ما يلتقي فيه شاعر مع سواه من حيث الأسلوب الشعري بصرف النظر عن الاختلاف الزمني"[7].

3- على المستوى الفني، يتسم منهج ابن سلام في تقديم الشعراء وتأخيرهم بالتخبط كما يرى بعض النقاد، إذ يعترض الدكتور الشكعة على تصنيف طرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص وعلقمة بن عبدة – وهم من الشعراء في الذروة برأيه – في الطبقة الجاهلية الرابعة، كما يعترض على تصنيف عمرو بن كلثوم وعنترة بن شداد والحارث بن حلزة في الطبقة السادسة، قائلاً : "ولا يذكر سبباً لتأخير هؤلاء الثلاثة المبرزين وزحزحتهم إلى هذا السفح البعيد كثيراً عن القمة"[8]. وينسحب هذا الاعتراض على تصنيف الشعراء الإسلاميين، أضف إلى ذلك إهمال ابن سلام لشعراء لهم مكانتهم في التراث الشعري العربي، كعمر بن أبي ربيعة، والطرماح بن حكيم، والكميت بن زيد، ولعل التزام ابن سلام الصارم بنظام الطبقات الرباعي هو الذي ولّد هذا الاضطراب في منازل الشعراء، وقد يكون السبب ما أشار إليه الدكتور الطاهر مكي، وهو غزارة نتاج شاعر دون آخر[9]، أو ذوق ابن سلام الشخصي. وقد لا تحمل لفظة (طبقة) معنى

---

(1) انظر: د.محمود المراغي، **دراسات في المكتبة العربية وتدوين التراث**، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، دار العلوم العربية، 1991 م، ص181 – 185.

(2) د.منير سلطان، **ابن سلاّم الجمحي وطبقات الشعراء**، ص 227 – 228.

(3) انظر : نفسه، ص 228.

(4) انظر : د.مصطفى الشكعة، **مناهج التأليف عند العلماء العرب**، الطبعة الثانية، بيروت، دار العلم للملايين، 1974 م، ص 410 – 412.

(5) يقول ابن سلام: " ففصّلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام، والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام، فنزّلناهم منازلَهم.. "، **طبقات فحول الشعراء**، ص 23 – 24.

(6) د.منير سلطان، **ابن سلاّم الجمحي وطبقات الشعراء**، ص 216.

(7) د.رجاء عيد، **التراث النقدي**، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1990 م، ص 162.

(8) د.مصطفى الشكعة، **مناهج التأليف عند العلماء العرب**، ص 411.

(9) يرى الدكتور الطاهر أحمد مكي أن كثرة الشعر – مع جودته – كانت سبباً لتفضيل شاعر على آخر عند ابن سلام، مستنداً إلى بعض الإشارات المنبثّة عبر الكتاب، كقول ابن سلام عن شعراء الطبقة الرابعة الجاهلية، وهم طرفة بن العبد، وعبيد بن الأبرص، وعلقمة بن عبدة،

المرتبة أو المنزلة –كما يرى المحقق محمود شاكر – وإنما التشابه بين أربعة شعراء في الأسلوب، أو الفن الشعري، مع بعض الفروق البسيطة بينهم[1].

4– على المستوى الكمّي، يرى الدكتور منير سلطان أنّ التوازن كان مفقوداً بين الطبقات من حيث كم الأخبار والأشعار، وقد بدا ذلك واضحاً في طبقات شعراء الجاهلية، "فالقوة والحماس الذي لمحناه في الطبقة الأولى أخذا يخفتان ويتراخيان ويصلان إلى أدنى درجاتهما في الطبقة السابعة، وإذا اعتبرنا أن الخبرين ملحقان بأصل ذكر النسب، أصبحت الطبقة السابعة لا قيمة لوجودها، إذ لم يعدُ عمل ابن سلام فيها ذكْر أسماء شعراء الطبقة فقط"[2]، وإذ قارنا بين طبقات الجاهلية – بالإضافة إلى طبقات أصحاب المراثي، والقرى العربية، والشعراء اليهود – مع نظيراتها الإسلامية، فإننا سنلحظ رجحان كفة الثانية من حيث عدد الصفحات إلى حد كبير، وينطبق هذا الخلل الكمي على شعراء الطبقة الإسلامية الأولى قياساً ببقية الطبقات، فأخبارهم تحتل مساحة كبيرة تفوق ما تلاها من طبقات إسلامية مجتمعة، وتماثل تقريباً ما جاء في الطبقات الجاهلية التي سبقتها كلها. ولعل شهرة بعض الشعراء، وغزارة نتاجهم، وانتشار أخبارهم، قد فرضت على ابن سلام هذا التباين الكمي في طبقات كتابه.

5– على المستوى التحليلي، يُلاحظ أنّ ابن سلام لم يرفد نصوصه المختارة بالتحليل العميق، مكتفياً بأحكام عامة تستند في معظمها إلى آراء العلماء، وقد تنبّه الدكتور رجاء عيد إلى ذلك، فقال: "وإذا تتبعنا تقويم ابن سلام لشعراء طبقاته رأينا أحكاماً سريعة لا تبين عن تمايز وتحليل، وإن كنا لا نغفل أثر الزمن المبكر لعمله النقدي"[3]، ويقول الدكتور محمد مندور في ذلك أيضاً: "إننا نلاحظ أنه يورد ما يختاره للشعراء المختلفين، أو يورد مطالعه، ولكنه لا يحلله، ولا ينقده، ولا يُظهر ما فيه من جمال أو قبح، وإن حَكَم على بعض القصائد، أو بعض الشعراء، فأحكامه في الغالب هي الأحكام التقليدية التي كانت الألسن تتداولها عن السابقين"[4]، ومن أمثلة هذه الأحكام العامة قوله في سحيم عبد بني الحسحاس: "وهو حلو الشعر، رقيق حواشي الكلام"[5]، وقوله في البعيث المجاشعي: "وكان البعيث شاعراً فاخر الكلام، حُرَّ اللفظ"[6]، من دون أن يوضّح هذه المصطلحات، أو المفاهيم بالشرح والتحليل، ولعل تركيز ابن سلام على تراجم الشعراء وأخبارهم قد حال دون اهتمامه بتحليل الشعر، وقد عوّض ابن سلام ذلك في دراسته لبعض القضايا النقدية التي تخللت تراجمه وأخباره.

لا تلغي المآخذ السابقة أهمية كتاب ابن سلام، وصنيعه المنهجي فيه، فيكفي أنه كان رائداً في منهج التبويب، وتقسيم الشعراء إلى طبقات، وقد حفظ لنا هذا الكتاب تراجم وأخبار استفاد منها اللاحقون في هذا الصنف من التأليف، فضلاً عن إلماحاته النقدية التي شكّلت الخطوات الأولى في النقد المنهجي عند العرب.

وعدي بن زيد: "هم أربعة رهطٍ فحول شعراء، موضعهم مع الأوائل، وإنما أخلّ بهم قلّة شعرهم بأيدي الرواة". **طبقات فحول الشعراء**، ص 137. وقوله في الأسود بن يعفر: "له واحدة رائعة طويلة، لاحقة بأجود الشعر، لوكان شفعها بمثلها قدّمناه على مرتبته". نفسه، ص 147. انظر: د.الطاهر أحمد مكي، **دراسة في مصادر الأدب**، الطبعة الثامنة، القاهرة، دار الفكر العربي، 1999 م، ص 166.

[1] انظر مقدمة المحقق محمود شاكر في: ابن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، ، ص 69. ويدحض هذا الرأي ما جاء في المقبوس السابق من أقوال ابن سلام.

[2] د.منير سلطان، **ابن سلاّم الجمحي وطبقات الشعراء**، ص 224.

[3] د.رجاء عيد، **التراث النقدي**، ص 165.

[4] د.محمد مندور، **النقد المنهجي عند العرب**، ص 21.

[5] ابن سلام الجمحي، **طبقات فحول الشعراء**، ص 187.

[6] نفسه، ص 535.

الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري (213 _ 276 هـ)

ابن قتيبة الدينوري – حياته وصفاته العلمية

ابن قتيبة الدينوري[1]، هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، وإنما سمي الدينوري لأنه أقام بالدينور مدة فنُسب إليها، نزل بغداد، وصنّف وجمع، وبَعُدَ صيتُه، وكان صادقاً فيما يرويه، عالماً باللغة والنحو والشعر والفقه، كثير التصنيف والتأليف، حدّثَ عن إسحاق بن راهويه وأبي حاتم السجستاني وطائفة، وحدّثَ عنه ابنه القاضي أحمد بن عبد الله وابن درستويه النحوي وغيرهما كثير، قال عنه الخطيب البغدادي: "كان ثقة ديناً فاضلاً"[2]، من كتبه: عيون الأخبار، أدب الكاتب، غريب القرآن، غريب الحديث، معاني الشعر، الشعر والشعراء، وغيرها كثير، وما يهمنا في مجال التراجم هو كتابه (الشعر والشعراء) الذي يعد من أوائل الكتب التي أُلّفت في تراجم الشعراء، وسيعرض البحث لمنهج الكتاب ومادته، مبيّناً أهميته في التأسيس لفن التراجم الشعرية، والمآخذ التي سُجّلت عليه.

مادة الكتاب ومنهجه في التراجم

يستهلّ ابن قتيبة كتابه بمقدمة مهمة تجلو غايته من تأليف هذا الكتاب، ووسيلته إلى هذه الغاية، ومنهجه العلمي فيه، فيقول في مفتتح هذه المقدمة: "هذا كتابٌ ألّفتُه في الشعراء، أَخبرتُ فيه عن الشعراء وأزمانهم، وأقدارهم، وأحوالهم في أشعارهم، وقبائلهم، وأسماء آبائهم، ومَن كان يُعرف باللقب أو بالكنية منهم. وعمّا يُستحسن من أخبار الرجل ويُستجاد من شعره، وما أَخَذَتْهُ العلماء عليهم من الغلط والخطاء في ألفاظهم أو معانيهم، وما سَبَقَ إليه المتقدّمون فأَخذه عنهم المتأخّرون. وأخبرتُ فيه عن أقسام الشعر وطبقاته، وعن الوجوه التي يُختار الشعرُ عليها ويستحسن لها"[3].

فالكتاب إذن في تراجم الشعراء وأخبارهم، بالإضافة إلى بعض الآراء النقدية في الشعر وصنوفه، لكنّ السمة الغالبة على الكتاب هي الترجمة أو السيرة الحياتية والشعرية لمجموعة من الشعراء، وينحو ابن قتيبة في كتابه منحىً خاصاً من حيث اختيار الشعراء الذين ترجم لهم، فهو يقتصر في اختياره على الشعراء المشهورين، من دون المغمورين، ويذكر في مقدمته سبباً لهذا الاختيار فيقول: "وكان أكثرُ قصدي للمشهورين من الشعراء، الذين يعرفهم جُلُّ أهل الأدب، والذين يَقَعُ الاحتجاجُ بأشعارهم في الغريب، وفي النحو، وفي كتاب الله عزّ وجلّ، وحديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فأمّا مَن خَفَيَ اسمُه وقلّ ذكرُه وكَسَدَ شعرُه، وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص، فما أَقَلّ مَن ذكرتُ من هذه الطبقة. إذ كنتُ لا أعرفُ منهم إلا القليل، ولا أعرف لذلك القليل أيضاً أخباراً. وإذ كنتُ أَعلمُ أنّه لا حاجةَ بك إلى أنْ أُسمّيَ لك أسماءَ لا أَدُلُّ عليها بخبرٍ أو زمان، أو نسبٍ أو نادرة، أو بيتٍ يُستجاد، أو يُستغرب"[4].

ويشير ابن قتيبة بعد ذلك إلى صعوبة إحصاء الشعراء جميعهم في عصر من العصور، أو في قبيلة من القبائل، كما يشير إلى عدم عرضه في كتابه لمن غَلَبَ عليه غيرُ الشعر، والأهم من ذلك إشارته إلى نظرته النقدية في اختياراته، فيقول: "ولم أَسلُك، فيما ذكرتُه من شعر كل شاعر مختاراً له، سبيلَ مَن قَلّد، أو استَحْسَنَ باستحسان غيره. ولا نظرتُ إلى المتقدّم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخّر منهم بعين الاحتقار لتأخّره، بل نظرتُ بعين العدلِ على

---

(1) انظر ترجمته في : – ابن النديم، **الفهرست**، ص 105 – 106.
– الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج 13، ص 296 – 302.
– القفطي، **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، ج 2، ص 143 – 147.

(2) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، **تاريخ بغداد**، تحقيق: د.بشار عواد معروف، الطبعة الأولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2002 م، ج 11، ص 411.

(3) ابن قتيبة الدينوري، **الشعر والشعراء**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة، مصر، دار المعارف، 1982 م، ج 1، ص 59.

(4) نفسه، ص 59.

الفريقين، وأَعطيتُ كلاً حظَّه، ووفَّرتُ عليه حقَّه"[1]. وبذلك يخطو ابن قتيبة خطوة متقدمة في المفاضلة بين الشعراء على أساس فني بحت، ما ينم عن رؤية علمية واضحة لقضية القدماء والمحدثين، تتجاوز عامل الزمن في تقدّم شاعر على آخر.

وينعطف ابن قتيبة بعد عرض منهجه إلى مادة الكتاب، فيخصص القسم الأول منه للشعر وضروبه، متحدثاً في سياق ذلك عن الطبع والتكلّف في الشعر، ثم يعالج عيوب الشعر، مستعيناً بالأمثلة والشواهد في عرض أفكاره، والاحتجاج لها. أما القسم الثاني – وهو الأكثر أهمية من ناحية تأريخ الأدب – فقد خصصه ابن قتيبة لتراجم الشعراء، "ويمكن القول، بوجه عام، أنه في الجانب الأول خالق مبدع، وأنه في الآخر جمّاع راوية"[2].

وقد تناول ابن قتيبة في تراجمه 206 شعراء، يتوزعون بين الجاهلية والإسلام، وصولاً إلى منتصف القرن الثالث الهجري، ويتصدّر امرؤ القيس قائمة المترجَم لهم، وتشغل ترجمته حيّزاً كبيراً لا يلبث أن يتناقص مع تناول غيره من الشعراء، ويقوم منهج ابن قتيبة في الترجمة على ذكر اسم الشاعر ونسبه، ونتفاً من أخباره وأشعاره، معقّباً على الشعر، أو مقدّماً له، بآراء نقدية سريعة تجلو مكامن الإبداع فيه، ليبقى الهيكل العام للكتاب قائماً على التزام ابن قتيبة بمنهج معيّن في تسلسل الشعراء، فهو يبدأ بالجاهليين، ويتبعهم بالإسلاميين، ويتناثر المخضرمون بين القسمين، وقد يعقب ابن قتيبة شاعراً بآخر لقرابة عائلية بينهما، كترجمته لكعب بن زهير بعد أبيه، أو لصلة قبلية، كترجمته لاثني عشر شاعراً من هذيل على التوالي، وقد تكون القرابة فنية، كترجمته لشعراء النقائض متتابعين، كما فعل الأمر نفسه مع الشعراء الرجّاز[3]، ولذا فإن الدكتور محمود المراغي يرى في هذا المؤلَّف كتاباً في التراجم أكثر منه كتاب طبقات، فابن قتيبة لم يرتّب الشعراء في طبقات، بل كان يتناول كل شاعر على حدة، فيذكر زمنه وأخباره ونوادره وأشعاره، وما قيل عنه وعن شعره، فإذا ما انتهى منه انتقل إلى غيره[4].

أهمية الكتاب

1– تشتمل مقدمة ابن قتيبة على دراسة نقدية مهمة للشعر العربي، قديمه وحديثه، فهو يقسّم الشعر إلى أربعة ضروب : ضربٌ حَسُنَ لفظه وجاد معناه، وضربٌ حَسُنَ لفظه من دون فائدة في المعنى، وضربٌ جاد معناه وقَصُرَتْ ألفاظه عنه، وضربٌ تأخّر معناه وتأخّر لفظه [5]، "وهو عقب كل تعريف أو قسم من أقسام الشعر الأربعة التي ذكرها يأتي عليها بشواهد من شعر القدماء والمحدثين، ويناقش هذه الشواهد، ويرد على أقوال العلماء فيها إذا كان لأحدهم رأي يخالف معايير ابن قتيبة في الحكم"[6].

كما تشتمل المقدمة على تقسيم الشعراء، فمنهم المتكلّف والمطبوع، ويشرح ابن قتيبة معنى كل نوع من النوعين[7]، ثم يتحدث عن عيوب الشعر، الإيقاعية والنحوية[8]، وهو بذلك يرسم حدوداً للشعر الجيد، ويُقدّم صورة

---

(1) نفسه، ص 62.

(2) د.الطاهر أحمد مكي، **دراسة في مصادر الأدب**، ص 244.

(3) للتوسع، انظر : نفسه، ص 246 – 248.

(4) انظر : د.محمود المراغي، **دراسات في المكتبة العربية وتدوين التراث**، ص 213 – 214.

(5) انظر : ابن قتيبة الدينوري، **الشعر والشعراء**، ص 64 – 74.

(6) د.محمود المراغي، **دراسات في المكتبة العربية وتدوين التراث**، ص 213. ونذكر على سبيل المثال مناقشته للأصمعي في شعرٍ للمرقّش، انظر : ابن قتيبة الدينوري، **الشعر والشعراء**، ص 72 – 73.

(7) انظر : ابن قتيبة الدينوري، **الشعر والشعراء**، ص 77 – 94.

(8) انظر : نفسه، ص 95 – 103.

واضحة عن معايير النقد في عصره، ويرى الدكتور محمود المراغي أن مقدمة الكتاب، وما جاء فيها من قضايا شعرية ونقدية، دليلٌ على تطور منهج التأليف عند ابن قتيبة[1].

2- يُحسب لابن قتيبة أنه لم يقتصر في تراجمه على المشهورين من الشعراء القدماء وحسب، كما فعل ابن سلاّم في طبقاته، بل امتد اختياره إلى المشهورين أيضاً من المحدثين في وقته، من شعراء القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري، "وقد دفعه إلى ذلك المنهج رغبته في أن يجعل الفريقين في ميزان نقده سواء، لا يزن للقدماء بمعيار خاص لتقدّمهم، ويزن للمحدثين بمعيار أقلّ لتأخرهم، بل جعل للفريقين معياراً واحداً في حسابه النقدي، وهذه خطوة متطورة، وسّع بها ابن قتيبة دائرة النقد، ووضع بها أساساً جديداً في سبيل تطور النقد"[2].

وبذا فإنّ ابن قتيبة لا يرى فضلاً للمتقدّم على المتأخر لمجرد أسبقيته، مميّزاً بين معياري الجودة والكثرة، مما يُنبئ عن عمق فهم ابن قتيبة لقضية القدماء والمحدثين على مستوى التنظير النقدي، وعلى مستوى اختياراته للتراجم، ويقول المستعرب الفرنسي لوكونت في ذلك: "وهكذا نجد أن أهمية كتاب (الشعر والشعراء) تكمن في أن ابن قتيبة، خلافاً للاختيارات الشعرية التي سبقته: كـ (المفضليات)، و(الأصمعيات)، وحتى (طبقات فحول الشعراء) للجمحي، لم يكن ليتردّد في أن يفسح المجال واسعاً، في كتابه هذا، لاختيار قِطع كثيرة من الأشعار (المحدثة)، إن لم نقل (المعاصرة) له"[3].

3- تتجلى أهمية صنيع ابن قتيبة على مستوى اختيار الشعراء في عدم تأثير اتجاهاته الدينية أو الاجتماعية أو السياسية على ترجمة بعض الشعراء الذين يخالفونه، وبذا فقد كان ابن قتيبة متحرراً من الأحكام المسبقة التي لا تنتمي إلى حقل النقد أو الترجمة الشعرية، ويبدو ذلك واضحاً – على سبيل المثال – في إشارته إلى أنّ بشار بن برد كان متهماً بالزندقة، من دون أن يمنعه ذلك من وصفه بأنه من أشعر المُحدَثين. ويرى الدكتور الطاهر مكي أن كتاب ابن قتيبة على قدر كبير من التنظيم، إذ يضم الكتاب كل موضوع إلى شبيهه، وينقسم إلى تراجم ذات عناوين، أما أسلوبه فقد اتسم بالوضوح، وإيثار الجمل الوجيزة المتوازية، والميل إلى ما هو سهل من المفردات والتراكيب [4].

المآخذ على منهجية الكتاب

1- يناقش الدكتور محمد مندور ما جاء في مقدمة الكتاب على أنه في الشعر والشعراء، فيقول: "وهذا كلام قد يفيد أن المؤلف قد جمع بين التاريخ والنقد، ولكن الواقع بخلاف ذلك، فابن قتيبة لم يتناول النصوص ولا الشعر بنقد فني تطبيقي، وإنما اكتفى بأن عرض في مقدمته لبعض المسائل العامة يحاول أن يضع لها مبادئ، ثم أخذ في سرد سير الشعراء وبعض أشعارهم على غير منهج واضح ولا مبدأ في التأليف"[5]، وينتقد الدكتور مندور طريقة ابن قتيبة في

---

[1] انظر : د.محمود المراغي، **دراسات في المكتبة العربية وتدوين التراث**، ص 213.

[2] نفسه، ص 211.

[3] جيرار لوكونت، **ابن قتيبة الدينوري – أديب الفقهاء وفقيه الأدباء** ، ترجمة : د.محمود المقداد، دمشق، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، 2006 م، ص 652.

[4] انظر : د.الطاهر أحمد مكي، **دراسة في مصادر الأدب**، ص 249.

[5] د.محمد مندور، **النقد المنهجي عند العرب**، ص 22.

سرد سير الشعراء فيقول: "تاريخ ابن قتيبة قصص ونوادر وأخبار وحكايات، وأما محاولة جمع الشعراء في مدارس وفقاً لمذاهبهم الفنية، وأما محاولة دراسة فنون الأدب كوحدات، وأما محاولة تتبع التيارات المختلفة فهذه الأشياء لم تخطر له على بال"[1]. وينتهي الدكتور مندور إلى أن ابن قتيبة كان تقريرياً في نقده وسرده، فهو يضع المبدأ، ثم لا يُحسن التطبيق والتذوق، وثمة قضيتان في هذا الرأي أو المأخذ :

الأولى في مجال النقد الذي نتفق مع الدكتور مندور أنه لم يكن تطبيقياً بالمعنى العلمي المنهجي للكلمة، ولكنه كان تنظيرياً بامتياز، ولكن لا ينبغي أن نغمط آراء ابن قتيبة النقدية حقها من القيمة، فهو يتحدث عن ضروب الشعر مؤمثلاً لها، كما يعرّج على عيوب الشعر باستفاضة، وكذا قضية التكلّف والطبع، وقضية القدماء والمحدثين، وهذا التنظير النقدي يشكّل خطوة متقدمة في تاريخ التأليف النقدي العربي.

والثانية في مجال غياب المنهج عن سرد تراجم الشعراء، وهذه ملاحظة مشتركة بين مجموعة من الباحثين، فبالإضافة إلى الدكتور مندور، يقول الدكتور السعيد الورقي: "والملاحظ أن ابن قتيبة لم يتبع منهجاً خاصاً في ترتيبه للشعراء، فيُقدّم شعراء خاملين على لامعين، ويُقدّم شعراء على من هم أقدم منهم، ولم يتبع ترتيباً أبجدياً في عرضه لشعرائه"[2]، ويتفق الدكتور الطاهر مكي مع هذا الرأي قائلاً عن ابن قتيبة : "ولم يلتزم بنهج معين يسير عليه في تعريفه بالشعراء"[3]، فابن قتيبة لم يُلزم نفسه بمنهج الطبقات كما فعل ابن سلام، ولم يعتمد معيار الكم للمفاضلة بين الشعراء، ولم يقسمهم بحسب البيئة أو الدين أو غير ذلك، وإنما جاء سرده عفوياً كما أسلفنا، ومع ذلك فإن جهد ابن قتيبة في فرز الشعراء، واستقلال كل شاعر بحيّز معين للتعريف به وبأشعاره، يمكن أن يُعدّ تنظيماً يتجاوز فوضى الاستطراد والتداخل المعرفي التي ميّزت بعض الكتب في ذلك العصر.

2- يرى الدكتور الطاهر مكي أن ابن قتيبة "لا يهتم عادة بتفسير لغويات النصوص الشعرية التي يوردها، ولا بشرحها، وقد يعلّق عليها أحياناً، ينقد بعض ما يرويه، لكن نقده يقوم على التذوق، لا على التحليل والتعليل"[4]، فأحكامه النقدية عامة، وتمهيده لاختياره الأبيات لا يتجاوز قوله: (مما يستجاد من شعره)، أو(مما يُعاب عليه من شعره قوله)، ويرى (لوكونت) أن ابن قتيبة كان منظّراً للشعر، "ولم يكن يفتقر في ذلك إلى شيء من الذوق، غير أن ذوقه هذا كان عصياً على التحليل"[5]، ويمكننا التسليم بغياب الحس النقدي العميق على مستوى التحليل النصي، من دون أن يؤثر ذلك على إقرارنا بجهد ابن قتيبة على مستوى الترجمة الشعرية التي استوعبت كمّاً كبيراً من الشعراء، وأخبارهم، وأشعارهم.

3- تبرز قضية التفاوت الكمّي في تراجم الشعراء عند ابن قتيبة بوصفها إشكالية منهجية في توزيع المادة العلمية، فبعض التراجم تقصر حتى لا تتجاوز اسم الشاعر، يتبعه بيت له من الشعر، كما في تراجم: سحيم بن وثيل، وصخر الغي، وأبو العيال بن أبي عنترة، فيما تشغل ترجمة امرئ القيس – على سبيل المثال – حيزاً كبيراً قياساً بغيره من الشعراء، وقد لاحظ الدكتور مكي ذلك من دون أن يلتمس العذر لابن قتيبة[6]، فالشهرة والكثرة والجودة تفرض هذا التفاوت على المؤلِّف، وتدفعه إلى تخصيص مساحة أكبر للشعراء الفحول. ومن ملاحظات الدكتور مكي على ابن

---

(1) نفسه، ص 27.

(2) د.السعيد الورقي، **في مصادر التراث العربي**، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 2000 م، ص 179.

(3) د.الطاهر أحمد مكي، **دراسة في مصادر الأدب**، ص 246.

(4) نفسه، ص 248.

(5) جيرار لوكونت، **ابن قتيبة الدينوري – أديب الفقهاء وفقيه الأدباء**، ص 629.

(6) انظر : د.الطاهر أحمد مكي، **دراسة في مصادر الأدب**، ص 248.

قتيبة أيضاً: غياب الإسناد عن جانب كبير من أخباره، واقتصار بعض الأخبار على الراوي المباشر، كما يأخذ عليه بعض الأخطاء في نسبة الشعر أو نسب الشاعر، على قلتها[1].

4- يشيد الدكتور رجاء عيد بفهم ابن قتيبة لقضية القدماء والمحدثين، وعدم تفضيل المتقدّمين على المتأخرين لأسبقيتهم الزمنية، لكنه يأخذ عليه عدم ربط هذه القضية بقضية التطور الفكري، كما أنه لا يربطها باختلاف الإيقاع الزمني وأثره في تغيّر حركة المجتمع الحضارية واللغوية وما لذلك – وغيره – من أثر في الأسلوب الشعري والتجربة النفسية والحياتية[2]، فابن قتيبة يُلزم الشعراء المحدثين بالسير على منهج القدماء في الشعر، ويقول: "وليس لمتأخِّر الشعراء أن يَخرج عن مذهب المتقدّمين في هذه الأقسام، فيقفَ على منزلٍ عامر، أو يبكي عند مُشَيَّد البنيان، لأن المتقدّمين وقفوا على المنزل الداثر، والرسم العافي. أو يرحلَ على حمارٍ أو بغلٍ ويصفَهما، لأن المتقدّمين رحلوا على الناقة والبعير.."[3]، وهو بذلك يفرض على المتأخرين مذهب المتقدّمين، وظروف زمنهم وبيئتهم وحياتهم التي لا بد أن تختلف باختلاف العصور، ومن هنا ينتقد الدكتور محمد مندور التناقض بين نظرة ابن قتيبة الثورية إلى قضية القدماء والمحدثين، ومطالبته المحدثين باتباع نهج القدماء[4].

ينهض كتاب ابن قتيبة على الانتقائية من جهة، والموسوعية من جهة أخرى، فالكتاب مصدر واسع لعدد كبير من الشعراء، ومرجع لكثير من النصوص الشعرية وملابساتها، ولكثير من آراء القدماء في الشعر والشعراء. بالإضافة إلى القيمة النقدية المهمة لمقدمة الكتاب.

خاتمة

شكّل التأليف في التراجم الشعرية ملمحاً مهماً من ملامح حركة التأليف عند العرب في القرن الثالث الهجري، ويُعدُّ كتابا ابن سلام الجمحي (طبقات فحول الشعراء) وابن قتيبة الدينوري (الشعر والشعراء) مِن أشهر ما أُلِّف في هذا المجال، وتجلو منهجية الكتابين طبيعة الفكر النقدي والمعرفي والثقافي في ذلك العصر، وقد خَلُص البحث إلى اتفاق المؤلّفين في بعض القضايا المنهجية، واختلافهما في أخرى.

فقد اتفق ابن سلام وابن قتيبة في تناول الشعراء المشهورين، لا المغمورين، مع رجحان واضح عندهما في حجم الترجمة لصالح الشعراء الأكثر شهرة، ولا يخلو الكتابان من نظرات نقدية مبثوثة في مقدمة الكتابين ومتنيهما، أما تحليل النصوص عندهما فقد جاء سطحياً، إذ اكتفى المؤلّفان بأحكام نقدية عامة، وآراء قصيرة في الشعر والشعراء، واعتنى كلٌّ منهما بالجوانب الاجتماعية والسياسية والدينية والأدبية في سياق الترجمة، مما أسهم في رسم صورة واضحة للمجتمع العربي في العصور التي تناولها المؤلّفان.

و يتبدى الاختلاف بينهما في اقتصار ابن سلام على تراجم الشعراء القدماء، وعناية ابن قتيبة بالشعراء المحدثين في عصره، بالإضافة إلى القدماء، كما أن منهج ابن سلام في عرض تراجمه يسير وفق نظام الطبقات، فيما تغيب المنهجية الواضحة عن تسلسل تراجم ابن قتيبة، و تبرز عناية ابن سلام بالإسناد الطويل في أخباره ومروياته، بخلاف ابن قتيبة الذي يكتفي بإسناد قصير أحياناً، ويغيب الإسناد غالباً عن معظم أخباره الواردة في متن الكتاب.

---

[1] انظر : نفسه، ص 248 – 249.

[2] انظر : د.رجاء عيد، **التراث النقدي**، ص 190.

[3] ابن قتيبة الدينوري، **الشعر والشعراء**، ص 76.

[4] انظر : د.محمد مندور، **النقد المنهجي عند العرب**، ص 23 – 26.

المصادر و المراجع

1- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الورّاق البغدادي: *الفهرست*، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 2، 1997 م.

2- الأنباري، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري: *نزهة الألباء في طبقات الأدباء*، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط 3، 1985 م.

3- الجمحي، محمد بن سلام: *طبقات فحول الشعراء*، تحقيق: محمود محمد شاكر، جدّة، دار المدني، 1974 م.

4- حسين، طه: *من حديث الشعر والنثر*، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2013 م.

5- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي: *معجم الأدباء*، تحقيق: د.إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1993 م.

6- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت: *تاريخ بغداد*، تحقيق: د.بشار عواد معروف، الطبعة الأولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2002 م.

7- خفاجي، د.محمد عبد المنعم: *ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، دار الجيل*، بيروت، 1991 م.

8- الدينوري، ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة، مصر، دار *المعارف*، 1982 م.

9- الذهبي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز: سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثالثة، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1985 م.

10- الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن الأندلسي: طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، القاهرة، مصر، دار المعارف، 1973 م.

11- سلطان، د.منير: ابن سلاّم الجمحي وطبقات الشعراء، الطبعة الثانية، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1986 م.

12- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: *بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، ط 2 ، 1979 م.

13- الشكعة، د.مصطفى: مناهج التأليف عند العلماء العرب، الطبعة الثانية، بيروت، *دار العلم للملايين*، 1974 م.

14- شوقي، د.أحمد: من المصادر الأدبية واللغوية، *دار العلوم العربية*، بيروت، لبنان، 1990 م.

15- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله: *الوافي بالوفيات*، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 2000 م.

16- عيد، د.رجاء: التراث النقدي، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1990 م.

17- القفطي ، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف: *إنباه الرواة على أنباه النحاة*، الطبعة الأولى، بيروت، المكتبة العصرية، 1424 هـ.

18- لوكونت، جيرار: ابن قتيبة الدينوري – أديب الفقهاء وفقيه الأدباء، ترجمة: د.محمود المقداد، دمشق، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، 2006 م.

19- المراغي، د.محمود: *دراسات في المكتبة العربية وتدوين التراث*، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، دار العلوم العربية، 1991 م.

20- مكي، د.الطاهر أحمد: دراسة في مصادر الأدب، الطبعة الثامنة، القاهرة، دار الفكر العربي، 1999 م.

21- مندور، د.محمد: النقد المنهجي عند العرب، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر، 1996 م.

22- النجدي، أحمد جاسم: *منهج البحث الأدبي عند العرب*، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والفنون، 1978 م.

23- الورقي، د.السعيد: في مصادر التراث العربي، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 2000 م.